الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الحدث الكلامي صناعة مكتسبة عند ابن خلدون

The Speech Act, Acquisition Making by Ibn Khldun

Dr. Tabet KASSOUL
University of Sidi Bel Abbes - Algeria

د.قسول ثابت
جامعة سيدي بلعباس
kassoul.tabet@gmail.com

ملخص

يعتبر المفكر "ابن خلدون" في التقاليد الإسلامية، من أكبر مفكري العالم الإسلامي، ففي كتابه المقدمة، يقدم نظرة عليمة مبكرة للتاريخ العالمي، بحيث أثرت نظرته على مختلف العلوم المشتغلة بالإنسان ومعاشه، من بينها: الديموغرافيا، الاقتصاد، العلوم الدينية، وأخرى. في هذا المقال، نعمد إلى توضيح وجهة نظر ابن خلدون على غرار قدامى علماء اللغة في العلوم اللغوية، وفي الوقت ذاته نشيد بإسهاماتهم في الدراسات الألسنية بالمفهوم المعاصر، كما أشار إليها العالم اللغوي "دي سوسير" و"شومسكي".

الكلمات الدالة: اللسان؛ الاكتساب؛ المعنى، اللغة، ملكة التفكير.

Abstract

Ibn Khaldun is considered as one of the Islamic traditions, one of the greatest historical thinkers in the Islamic world. In his book Muqaddimah, he records an early view of universal history. Many sciences were treated by him, such as philosophy of history, the social sciences, demography, economics, Islamic theology and others. In this article, we try to show the important place taken by science of language, and in the same time, we want to present his contributions in science of language before the writings of some scientists as de Saussure and Chomsky.

Keywords: *Tongue (Langue), Acquisition, meaning, language, faculty of thinking.*

مقدمة

تعيش الدراسات اللغوية اليوم عصرها الذهبي في العالم المتقدم، ولاسيما في فرنسا وأمريكا. أمَّا في ثقافتنا المعاصرة فلم تزل الدراسات المتعلقة باللغة العربية تعاني ألم الولادة، إننا لم نزل في مرحلة ترسيخ الأدب، ولم نحرز نقلة كبيرة في مضمار ترسيخ الفكر والعلوم، ولا ريب في أنّ عالم اللغة له علاقة بقطاع التفكير أكثر من قطاع الأدب.

يمكن القول، أنّ عرب القرون الوسطى هم أهم من اشتغل بالتحليل اللغوي، وقد بلغت النظرية اللغوية ذروة شامخة على أيديهم، وتمثلت هذه الذروة في رجال تمكنوا من فهم البنيان اللغوي، ومن بين هؤلاء نجد عبد الرحمن بن خلدون، الذي تميّز بقدرته على البحث عن قوانين اللغة وعن بنياتها الداخلية، ولعله حاول أن يكشف هذه العلائق الداخلية التي كانت اللغة العربية تنمو وفقاً لها، كما أنَّه رفض أن يفهم اللغة من حيث هي ركام من المفردات، بل فهمها بوصفها شبكة من العلاقات الداخلية، وهذه النظرة فتحت أفقاً واسعاً أمام الدراسات اللغوية، وهذا يعني أن التحليل اللغوي والبحث عن اللغة هو المهاد الثقافي لتوليد نظرية لغوية، لأنّ أي تقدم في فهم اللغة يلعب دور الشارط والمشروط في عملية التقدم[1].

يعتبر ابن خلدون نشأة العلوم وتقدمها ظاهرة هامة من ظواهر العمران البشري، إذ هي أرقى ما نراها في المدن الكبرى والأمصار المزدهرة، ولما كان طلب العلم فطرة في الإنسان صحّ عنده أن العلوم إنما تنشأ عن حاجة فطرية يسعى الإنسان إلى تحقيقها إمّا بالاقتباس عن الأولين أو بالاستنباط الفكري، وبناء عليه، يقسم العلوم إلى قسمين:

الأولى تشمل العلوم النقلية التي يأخذها طالب العلم من السلف كالفقه والأصول، والثاني تضم العلوم العقلية وهي التي يتوصل إليها بجهده الفكري، وهي طبيعيه في الإنسان، ولذلك كانت غير مقصورة على ملكة أو أمّة[2].

ويشير ابن خلدون إلى وجوب الابتداء بتدريس العلوم النقلية حتى إذا ارتضى بها عقل الناشئ، كان إقباله على العلوم العقلية أيسر مأخذ وأسلم عافية. وقد بوّب هذه العلوم على الوجه التالي: العلوم العقلية والعلوم النقلية. فأما العلوم العقلية تشمل علم المنطق والعلم الطبيعي، هذا الأخير يشمل ستة علوم، وهي: الإنسان والنبات والمعادن والطب والفلاحة، والعلم الإلهي ويقصد به علم ما بعد الطبيعة وعلم التعاليم الذي يشمل أربعة علوم هي: الهندسة والحساب والموسيقى والفلك، وأما العلوم النقلية، فتشمل ثلاثة علوم، علم النفس وعلم الكلام والعلوم اللسانية، فعلم التفسير فيه علم القراءات وعلم الحديث وعلم أصول الفقه. أما علم الكلام فيشمل علم التصوّف وعلم تعبير الرؤيا، أمّا العلوم اللسانية فتحتوي على اللغة والنحو والبيان والأدب[3].

والمنطق عنده ميزان لتصحيح العلم، فهو لا يفيد إلا في نطاق ضيق، فالمناطقة غير قادرين على الوصول إلى نتائج في الأمور الإلهية[4].

1ـ علاقة الملكة باللغة ودورها في فهم العلوم

يرى ابن خلدون أن العلوم الشرعية لا يمكن أن تقوم بدون أن تعتمد على ما تمده بها العلوم الملحقة والتي حدّدها في علوم اللسان، وهي كلها علوم وسيلة تتوقف عليها العلوم الشرعية أو ما يسميها هو بالنقلية، وفي هذا التصنيف نجد هيمنة النزعة النحوية البلاغية[5]، ويكون في هذا المقام، تقسيم ابن خلدون لعلوم اللسان إلى: اللغة والنحو والبيان والآداب ومعرفتها ضرورية لأنها قاعدة الأحكام الشرعية.

ولكن هذه العلوم والصنائع لا تستقر ولا يتمكن منها الفرد ولا يستفيد منها المجتمع إلاّ بوجود الملكة كما يشير العلامة ابن خلدون، فالحق في العلم والتفطن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفن المتناول حاصلا[6].

بالمنهج نفسه الذي يبرز أثر العلوم والصنائع في الاجتماع البشري أو العمران يتطرق ابن خلدون إلى (علوم اللسان) بفكره التنظيري مركزا على مادة البحث في اللغة العربية، ولهجتها وما طرأ عليها من قوانين التطوّر وما رسخ منها من الثوابت المتمثلة في لغة العلوم والأدب في البلاد الناطقة بالعربية عبر العصور، وفي تناوله لعلوم اللسان العربي[7] يتضح أنه ينطلق من فهم تنظيري لعلاقة الملكة[8] باللغة ومن ثم أثر ذلك في العربية كنموذج للدراسة حيث نهض بعمران الحيوان الناطق أو الإنسان المفكر الذي لا يفتر عن الفكر طرفة عين.

وإذا كان صاحب المقدمة قد اهتم بتعريف اللغة جاعلا الملكة جزءا من هذا التعريف، حيث يقول: اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام الفاعل لها فلابد أن تكون ملكة مستقرة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم[9].

وعبارة ابن خلدون تشير إلى إدراكه تعدد اللغات والألسن، فميز بين الوضوح والقصد، وبين عبارة المتكلم أي الفعل اللغوي ومحتوى الإبلاغ أي مضمون الإرسال، ويتجسد هذا التميز في طبيعة المقاطع، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كبر المعاني... وليس يوجد إلا لغة العرب وأمّا غيرها من اللغات، فكل معنى أو حال لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول ممّا تفسّره بكلام العرب.

من هنا، يتبيّن لنا من كلام ابن خلدون أنّ الحدث الكلامي، وهو اللغة، ملكة صناعية تروض، كما تروض اليد النجارة والحدادة، دلالةً على أن اللغة قضية مجردة تصاغ بالحدود

والقوانين، وعنها يتولد بالقياس الكلام المنطوق والمنجز فعلا، وهكذا يصبح اكتساب اللغة عملية جدلية بين التلقي والإقرار، لأنها ضرب من الأخذ يتفاعل مع نمط فيكون تحصيل الكلام معادلة تصاعدية بين المنصوص والقياس عليه، ومعلوم أن المنصوص هو معطى متسلط على الإنسان[10]، وفي هذا يبرهن ابن جني أن اللغة تؤخذ قياسًا، واشتقاق قوانينها المبدئية هو تكريس لمبدأ الاكتساب بالمحاكاة والتوليد "والقوانين التي وضعها المتقدمون وتقبلوها وعمل بها المتأخرون"[11]، وإلاّ يكون القوم قد جاءوا بجميع المواضيع والمضارعات وأسماء الفاعلين والمفعولين والمصادر وأسماء الأزمة والأمكنة والآحاد والجموع والتكبير والتصغير.

لكن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين: أحدهما، ما لابد من تقبله كهيئته لا وصية فيه وإلى تنبيه عليه نحو حجر ودار ومنته ما جدوه يتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه على الناس فقننوه وفصلوه[12]، فاللغة تعني حضور العقل في كل إفراز لغوي على إلحاق الكلام بجملة الصناعات التي يعبر فيها الإنسان عن مساره فتُؤخذ بالمران والتناول وذلك بالاكتساب والتحصيل ارتباطا اختياريا محوره أن الكلام لكل الصناعات وسائر الأعمال المنسوبة إلى القريحة ودقة الفكر وهنا يلح عبد القاهر الجرجاني على ملكة الاكتساب في اللغة جاء ذلك في مقدمة كتابه " دلائل الإعجاز" "فلكل من عرف أوضاع لغة من اللغات العربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدبه أجراسها وحروفها فهو بين في تلك اللغة كامل الأداة بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه منته إلى الغاية التي لا مذهب عندها"[13]، وهكذا نتوصل مع ابن خلدون ومن سبقوه إلى ذلك، أن الفكر اللغوي عند العرب يمثل نواة لنظرية متكاملة قائمة على الاكتساب والتحصيل، وأن الحدث الكلامي اكتساب ومواضعة، وهذا ما أشار إليه الفارابي في قوله: "فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك"[14].

2ـ الظاهرة اللغوية ملكة صناعية

عقد ابن خلدون في مقدمته بأن "اللغة ملكة صناعية"، وفيه يقرر أن السمع أبو الملكات اللسانية" أعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف التي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع وهذا هو معنى البلاغة"[15]. في كلامه عن اللغة نجد مصطلح "الملكة" يحتل مكانة مركزية في هذه المعالجة اللغوية، ولا يمكن الفصل في نظره بين "الظاهرة اللغوية" والظاهرة الملكية"، لفهم تطور حركة الفكر اللغوي في تناوله للظاهرة اللغوية المدروسة. ويؤكد باب "في علم النحو" "على أن الملكة اللغوية العربية من أحسن ملكات اللغوية "إنها ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا. فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم: تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي من المتعربين للعجم، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي إليها مما يغيرها لنحويها إليها باعتياد السمع وخشي أهل العلوم منهم تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فيغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة"[16].

لقد كان حرص العرب منذ القدم على تتبع قضايا لغتهم حرصا لا يهدأ البتة، واللغة تداول من جيل إلى جيل عن طريق السماع وتكرار الاستعمال "هكذا تميزت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال وهذا هو المعنى ما تقوله العامة من اللغة للعرب بالطبع، أي ملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوا من غيرهم ثم فسدت هذه الملكة لمضر لمخالطتهم الأعاجم"[17] وسبب فسادها أن الناشئ من جيل صار يسمع في العبارات عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة الخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأول وهذا معنى فساد اللسان العربي، ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية ولصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم"[18].

فاللغة العربية كانت ومازالت أداة مرنة للإيضاح عما تحتاج نفس الإنسان في كل الحالات وفي كل المواقف فهي في آن واحد لغة المحسوسات والتجريد، ولغة العقل والعاطفة، ولغة الاستدلال والخيال، تختلف لهجاتها ومستوياتها باختلاف الأقاليم والأجيال لكن دون مساس بجوهرها، وهذا عين ما انتهى إليه ابن خلدون في عصره، ومازال قائم المفعول حين قال: وما زالت هذه البلاغة والبيان دين العرب ومذهبهم لهذا العهد ولم تلتفتن في ذلك خرشفة النحاة، أهل صناعة الأعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أواخر الكلام من فساد الأعراب الذي يتدارسون قوانينه، وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من الألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى... وإنما وقفت العناية بلسان مضر لم يفسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق والمغرب وصارت ملكة على غير الصورة التي كانت أولا، فانقلبت لغة أخرى"[19]، ولربما ازداد هذا الوضع تعكرا بعدما حصل من احتكاك بين اللغة العربية واللغات الأجنبية نتيجة الاستعمار المباشر الذي عرفته جل الشعوب العربية في القرن ما قبل الأخير ومنتصفه، فنشأ إلى جانب هذه "الثنائية القائمة بين العامية والفصحى ازدواجية لغوية وثقافية كادت تقتضي في بعض الأحيان على الكيان

العربي برمته، وقد أوجد هذه الازدواجية وضعا خطيرا"[20].

3ـ أهمية النَّحو للمحافظة على ملكة اللغة

إنَّ بناء الجملة أو النحو أو تركيب الجملة، مصطلحات مألوفة في الكتابات المعاصرة للدلالة على مفهوم واحد يتصل بالقواعد التي تعدد نظام الجملة في اللغة وتجعلها قادرة على أداء المعنى الذي يريده المتحدث. ومفهوم النحو عند جمهور النحاة اقتصر على ضبط النهايات لحركات اللفظ وسكناته، ووضع الحروف في مواضعها، وتقديم الكلام منطلقا بالتقدم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك، وهو كيفية التركيب فيما بين التكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا من مقاييس مستنبطة من استنباط كلام العرب وقوانين مبنية عليها، والنحو هنا يبحث في تأليف الكلام أو تركيب فيما بين الكلام، أي التوصل إلى القواعد المفسرة لنظام تأليف الكلمات في الجملة حتى تؤدي المعنى المراد طبقا لنظام اللغة [21]، ومن هذا التعريف للنحو نجد بأننا لا نستطيع تكوين لغة ما سوى من حيث طرحها كمجموعة صيغ متماسكة من المعاني، فالفعل الكلامي فعل عقلي تعكس فيه الألفاظ والصور الذهنية، وكل حدث فكري يتمخض عنه حدث لغوي، يؤدي إلى تطور الألفاظ والمبادئ وإلى ابتكار صورة جديدة وإعادة صياغة الجملة وفقا للمعان المستجدة الطارئة.

فالعلاقة بين الألفاظ والدلالة يعني أن هناك خط يتحكم بماهية العلاقة وبتطورها عند العرب القدامى تمثل في أهمية دور اللفظ وأسبقيته على المعنى انطلاقا من المسلكين الأعرابي والديني، فلا غنى لأحدهما على الآخر محافظين على قدسية اللفظ، فعلم الفقه مثلا ينطلق من مقاصد اللغة لتناول الأحكام الشرعية وبين المواضعة اللغوية على مستوى الحقيقة والمجاز[22]، وعلم البلاغة التزم بالمحسنات اللفظية تبعا للوجود الشبه والاستعارة، ولقد لخص ابن خلدون أهمية هذا المنحى من خلال تحليله لأصول الفقه ومجال أبحاثه النحوية قائلا: "ينبغي النظر في دلالة الألفاظ وذلك باستفادت المعاني من تراكيب الكلام، حيث يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية "مفردة والمركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان"[23]، فالخصائص اللغوية لا تنحصر في ألفاظها ودلالتها وإنما تتجلى أيضا في تراكيبها وأساليبها وقد تعرض ابن جني لبعض خصائصها التي ذكرها ابن خلدون في قوله: " إنني إذا تحملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة، اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة، ما يملك علي جانب الفكر حين يكاد يطمع به أمام غلو السحرة "[24]. يشير ابن خلدون أن أول من كتب في النحو (أبو الأسود الدؤلي) من بني كنانة، بإشارة من على رضي الله عنه لأنه رأى تغير الملكة، فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة، ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهدي أيام الرشيد، للذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذ عن سيبويه فكمل تفاريعها، واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيه كتابه المشهور (الكتاب)، الذي صار إماما لكل ما كتب فيه من بعده [25].

إلا أن هناك رواية أخرى تقول قدم أعرابي في زمن عمر فقال: "من يقرأني بما أنزل الله على محمد فأقرأه رجل فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة، من الآية 3) بالجرِّ، فقالَ الأعرابي: "أَو قد برئ الله من رسوله". إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر مقالة الاعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت من المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فأقرأني أحدهم سورة (براءة)، فقال عمر ليس هكذا أن الله بريء من المشركين ورسوله (بالضمة)، فقال الأعرابي: وأنا أبرأ مما برأ الله ورسوله منه، فأمر عمر أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة وأمر أبا أسود الدؤلي فوضع النحو "[26].

وليس النحو دراسة التراكيب وإنما النظر في ورائها من مقاصد ولذلك كان شديد الصلة بعلم المعاني وفي هذا يقول ابن خلدون: "أعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد في إبانة الكلام ... وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد للدلالة غير أنَّ الكلمات فيها على الكثير من المعاني[27]، وهذا ما سبقه إليه عبد القاهر الجرجاني إلى الربط بينهما ربطا محكما وقد دفع بعض الباحثين إلى جعلها علما واحدا لتعود الروح إلى النحو بعد أن فقدها، فخصائص اللغة لم تدرس دراسة جدية على الرغم من الجهود التي بذلها النحاة والبلاغيون، وهي خصائص كثيرو من أبرزها الإيجاز الذي يعد من أهم سمات الكلام البليغ.

لقد قال معاوية بن أبي سفيان "لصحار بن عباس العبيدي "ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز" قال له معاوية وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ "ولذلك كان للكلام العرب يوصف بالإيجاز وان كانوا يطيلون عند اقتضاء الكلام، فقد قيل: لأبي عمروا: أكانت العرب تطيل فقال: نعم لتبلغ، قيل أكانت توجز" قال: نعم ليحفظ عنها"، وتعرض المعاصرون لهذه السمة الواصفة في العربية وتحدثوا عن الإيجاز في حروفها وألفاظها وتراكيبها منطوقة ومكتوبة، وقارنوا بينها وبين اللغات الأجنبية. وإن بهذا الإيجاز حققت كثيرا من الأهداف"[28].

وقد توسعت طرائق التعبير بالإعراب وهو الإبانة على المعاني بالألفاظ، ويكاد معظم الباحثين باللغة العربية وفقهها، يجمعون على أن الإعراب سمة واضحة من سمات اللغة وأنه ضروري وأن الغائه يؤدي إلى لبس في الكلام أو جمود في تراكيبها فهو مثل الطاقة الكامنة فيها[26]، وفي هذا قال عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن النحو:" إن الألفاظ المعلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس

الذي لا يعرف الصحيح من السقيم حتى يرجع إليه ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه[29]، فبالإعراب نميز المعاني ونتوقف على أغراض المتكلمين، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرهم فهم يفرقون بالحركات، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات، وأوصفها إبانة عن المقاصد للدلالة على الكثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور . وليس يوصف ذلك إلا في لغة العرب ... وهذا هو معنى قوله (صلى الله عليه وسلم): أوتيت جوامع الكلم واختصر لي للكلام اختصارا) واعتبر ذلك لمن يحكي عن عيسي وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكرار في قوله، زيد قائم وان زيد قائم، والمعنى واحد فقال: إن معانيها مختلفة، فالأول لإفادة خالي الذهن من قيام زيد، والثاني عن سمعه فتردد فيه، والثالث من عرف بالإصرار على إنكاره، فاختلفت الدلالة باختلاف الأصول[30].

فاللغة من حيث التراكيب دالة على المعاني سواء من حيث معناها الانفرادي من حيث التركيب فإنها لا تخرج عن نظريتين هما:

1- الألفاظ والعبارات المطلقة الدالة على المعاني وهي الدلالة الأصلية فإن في اللغة من حيث المفردات ألفاظا مثل الكلمات (العين والروح) وفيها ألفاظ مترادفة مثل (كلمني)، وألفاظ مضادة مثل كلمة قروء للحيض والطهارة.

2- كون التراكيب ألفاظا وعبارات دالة على معاني خادمة للألفاظ وعبارات مطلقة فإن كل خبر يقال يقتضي بيان ما يقصد منها بنسبة لذلك الخبر، فتوضع الجملة في شكل يؤدي إلى القصد المخبر والمخبر عنه، والحال الذي وجد عليها والمساق الذي سبقت به الجملة وفي نوع الأسلوب من الإفصاح والإيجاز[31].

القرآن يراعي عند الكلام تعبيرات يقصد منها مراعاة الأدب العالمي فحين أتى النداء من الله إلى العباد جاء بحرف النداء المقتضي للبعد ثابتا غير محذوف يشعر العبد بالبعد ولأن الياء تفيد التنبيه والعبد بحاجة إلى تنبيه عند النداء: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ (العنكبوت، من الآية 56). أما بالنسبة لنداء العبد لله فقد أتى بالنداء المجرد من الياء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة، من الآية 286).

وليس الإعراب كما يتوهم دعاة العامية والأنصار الأخذ باللغات الأعجمية أو المتأثرين بالدراسات الأجنبية زخرفيًا يزين به الكلام، وإنما هو عنصر أساسي في بناءه، إذا حرف منه سقط جزء من المعنى. وبناءه تعبير لبناء اللغة وتركيبها لأنه عمدت اللغة العربية[32]، ولذلك اهتم به القدماء والمعاصرين في جوانبه المختلفة وبفضل الإعراب الكاتب أو المتحدث يتعرف بالجملة فيراعي دواعي التقديم دون أن يبقى أسيرا للقواعد النحوية الثانية ولولا الإعراب لأصبحت اللغة الجامدة وفقدت حريتها في التعبير وقدرتها على التفنن في القول، فالإعراب صمام الأمان حين تشتبه علينا الأمور وتتعقد[33]، فالتقديم والتأخير في الجملة التي هي أصغر وحدة التي يتم بها الكلام، ولابد من أن يكون المسند والمسند إليه، أي فعل وفاعل ومبدأ وخبر وفيه قال سيبويه: "هذا باب المسند والمسند مما لا يغني منها على الأخر ولا يجد منه المتكلم بد"[34]، ولقد كتب الكثير قديما في هذا الموضوع، أي اللحن في اللغة العربية وصار أحد المفاهيم اللغوية المؤسسة على علم الدلالة وظاهرة اللحن تجسدت خاصة فيما شاع من الأخطاء النطقية في اللغة العربية فللحن ظاهرة مرضية غريبة عن اللغة العربية الفصحى، والمفهوم منها استخدام الكلمة الفصيحة بصورة خاطئة من وجهة البنية والإعراب بسبب ما شاع من أخطاء عند العامة"[35].

بذلك اشتهرت عبارة اللحن عند العوام، والمقصود من ذلك ارتكاب الأخطاء في الكلام يُؤاخذنا عليه علم الصرف أو علم النحو في العربية الفصحى وأن يكون التركيب رديئا وأن يستعمل كلمة في غير موضعها ويكون اللحن مثل الفصاحة مرتبط بعصر معين ويعني ارتكاب خطا في معنى الكلمة الذي ينبغي لنا المحافظة على معناها إلى يومنا مثلا 'طرب' يعني في آن واحد الفرح العظيم والجزع الشديد، ولكن العامة تكاد تستعمل فقط المعنى الأول وعلى هذا ركز النحاة جهدهم على هذه الظاهرة أكثر مما ركزوه على بناء الجملة والإعراب"[36]، والرأي السائد أن العربية مرت بعدة مستويات في العصر الجاهلي. لكن لا يعني ذلك إمكان تأريخ العصر الذي ظهر فيه اللحن ذلك أن دخول الأعاجم الإسلام إنصاف إلى ما لحن أخطاء راسخة بعدد من الكلمات التي أصابها اللحن واستقر عليها استعمال اللغوي السليم بواسطة التقيد النحوي والصرفي، دون أن يقدر على اجتثاثها اجتثاثا كاملا"[37]، بدأ ذلك منذ النصف الثاني من القرن الهجري وكان العصر الأموي متميزا بتشدده في اللحن ولم يتسامح مع مرتكبي الأخطاء وتفاقم الأمر في نهاية القر2 هـ واستمر إلى القرن 3هـ حسب قول الجاحظ. وهذا ما أكده ابن خلدون مما قال أن العربية صارت لغة تلقن بالتعليم والتمرين لا بالفطرة، وفيها يقول:" إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن ينبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، والمخاطبات فحول العرب أسجاعهم وأشعارهم..."[38]، ومن هنا كان على الطالب أن يتجنب الكلمات المشبوهة التي أصابها اللحن، وشاع بين الناطقين بالعربية حتى أن العمل بقواعد الإعراب في الحديث صار يجلب الاستنكار والسخرية، وكأن اللحن هو الذي تفوق رغم ما بذل من جهود مستميتة بدأ من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري"[39].

لكن ما قام به القدامى من الجهود لم يشمل تحليل قضية اللحن، فقده وجودها بل اشتغلوا بوضع مطابقات بين الصواب والخطأ فقد اقتصروا على تطبيق القواعد النحوية والصرفية لتبرير الوضع الخاطئ التي كانت عليه عدة كلمات ملحونات، فزادت الشقة اتساعا بين القواعد التي نسوها وبين الواقع اللغوي، ولا ننكر هنا أن تلك القواعد كانت المعيار الذي

مكن من قياس الفاصل الموجود بين المظهر السليم والمظهر الخاطئ في اللفظ والجهد المبذول لمكافحة اللحن، فلا نقاش في وجوب احترام القواعد التي شكلت الأسس في صلاح اللغة، ولكن كان ينبغي التنصيص على القواعد القارة لأن إهمال ذلك عاق تقدم اللغة"[40]، في حين نجد أن ابن خلدون يركز كثيرا على التحول على مبدأين أساسيين وهما المخالطة والمغالبة، أما المخالطة هي احتكاك بالمجاورة فتمثل النقل الاجتماعي العمراني في المسألة اللغوية وهي بذلك نموذج الضغط السوسيولوجي بالمعنى الدوركايمي، وأما الغلبة فهي المحرك الحضاري والسياسي في تطور اللغة، أقر ابن خلدون أن البناء اللغوي وقابلية اللسان وميله إلى العقلنة"[41]، وهذا ما أشار إليه في قوله "ولعلنا نغتاظ عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة (قبيلة مضر) ففسدت اللغات وملكاتها مجانا"[42].

الميراث اللغوي في الحضارة العربية ربط اللغة بنسيج الأبنية العلوية في المجتمع وبالتالي ارتبط مصير اللغة بمصير الأنظمة السياسية فغدت اللغة انعكاسا لرسم الحياة الاجتماعية على الصيغة الصراع السياسي بين الأمم ذات اللغات المتغايرة ويحوصل ابن خلدون هذا القانون المشتق من استقراء الواقع التاريخي بقوله: " أعلم أن اللغة أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو جيل الغالبين عليها أو المختطين لها... .لأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته على ذلك اللسان الأصلي أبعد. إنما نحصل من التعليم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى"[43]، وهكذا تبين لنا أن اللغة العربية عوملت معاملة الكائن الحي، تعيش وتقوى بحكم القوى الضاغطة على مجالها الحيوي طبقا لقانون الحياة، تتعرض لعوامل الإبادة والفناء فتنقرض، وكل ذلك معقود بناحية الأبنية العلوية في نشاط الشعوب والأمم، فاللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فإنما يقيد لغة الأم وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل والحرمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم"[44].

الخاتمة

إن موضوع الاكتساب والتحصيل من المواضيع المبدئية في الدراسات الإنسانية قاطبة، وهو من القضايا المعرفية ذات الطابع والشمول، ولعل بديهيات العقل تقود إلى الجزم بأن المعرفة البشرية يتناول حصول الإدراك إنما هو علم اللغة، لأن اللغة سبيل شامل وغير مقيد في كل تحصيل معرفي واكتساب إدراكي ولأن اللغة فضلا عن كونها أداة اتصال بين الإنسان والعالم الخارجي، فإنها تقوم بدور الربط الجدلي الفعال بين العقل من حيث هو أداة التفكير، ومكتسبات العقل من حيث هي موضوع التفكير[44]، والمتفحص في أمر اكتساب اللغة يجد أن أول مراتب قضية الاكتساب من الوجهة الدراسية العامة أنه تعلم مباشر لمواضعات، ومعه بحيث يصبح ممارسة لتلقين اللغة لكونه مواصفة لنواميس الكلام مستخرجة من ذاته.

فتكون هذه المرتبة تعليم اللغة بذات اللغة ومع دوران الكلام على نفسه بالوصف والتلقين حتى تخرج اللغة من وظيفتها المرجعية (La fonction référentielle) إلى وظيفة ما وراء اللغة [45] (La fonction métalinguistique)، والمرتبة الثانية في جدلية الاكتساب تتعين بارتقاء الإنسان من ممارسة تلقين اللغة فعليا إلى وصف عملية التعلم، أي النظر إلى تحول اللغة من أداة خطاب إلى أداة تلقين حيث تصبح كلاما في الكلام الملقن بالكلام DESCOURS SUR UN MITATALANGUAGE، أما الثالث المراتب فيمثل فيما له علاقة بجواهر الركائز التي تقوم عليها اللغة. وهكذا تصبح إشكالية التحصيل جسرا تعبره المواصفة اللسانية لتصل إلى ضبط خصائص اللغة في أبنيتها الباطنية[46].

وموروث الحضارة العربية في هذه القضية هو تحديد اللغة بكونها ملكة والملكة مفهوم متعدد الجوانب يمكن أن نحصره في القدرة على اكتساب ما لم يكن مكتسبا فهي تحول المفقود إلى الموجود بعد إثبات حق الملكية فيه وهنا يقرر ابن خلدون "إن اللغة في المتعارف هي عبارة عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"[47]. فهي بهذا عنوان حياة الشعوب وثقافتها، ودليل عقليتها ونفسيتها، وقد ركز ابن خلدون في هذا المنحى بالذات على علاقة اللغة بالبيئة التي نشأ فيها، وبالتالي على اكتسابها من قبل أهلها بالارتياد على الحفظ والممارسة، واللغة في نظرة اجتماعية عرفية اصطلاحية لها علاقة بالمؤسسات المحيطة بها (الدين، الدولة، الاجتماع القبلي). يقول ابن خلدون: "أعلم أن اللغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الملة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها... والدين صورة للوجود والملك، وكلها مواد له، والصورة المقدسة على الإعادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة"[48]، وتبعا لهذه القاعدة تطورت اللغة وخاصة عند اختلاط العرب، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مصر التي نزل بها القرآن وإنما هي لغة آخرة من امتزاج العجمة بها " فاللغة عنده مرتبطة بالملكة ثم تطورت ثقافيا واجتماعيا أي لها علاقة بالفرد والجماعة، بالبيئة والعمران وفكرة الملكة عنده تتحدد بالاعتماد على مستويين: الأول أبنية الدوال في الكلام على أبنية المدلولات والثاني بيان مراتب التغيير إبلاغا أو إبداعا لأن الذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر موجودة عند كل واحد، وهكذا يكون تأليف الكلام بعبارة عن المعاني محتاجا للقوالب التي تفرزها المواضعة اللغوية"[49] .

فمفهوم الملكة اللغوية متطابقا مع مبدأين هما العلم أو المعرفة، ومبدأ الاستطاعة أو القدرة وبينهما من التفاعل العضوي مثل الذي بين الإدراك والتغيير، أي مثل ما بين التلقي والبث أو التفكيك والتركيب. فالجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه"[50].

هذا ما أشار إليه ابن جني قبل ابن خلدون في "الخصائص"، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف إلا أن أبا علي (رحمه الله) قال لي يوما: هي من عند الله، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة، من الآية 31)، وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك لأنه قد يجوز تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى لا محالة، فإذا كان ذلك محتملا غي مستنكرا سقط الاستدلال به"[51]، فاللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والإنفاق، ويرسم "ابن جني" صورة لكيفية بناء اللغة بقوله: "كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة على الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة لتمتاز بها من غيره... فكأنهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم فأومئوا إليه فقالوا: 'إنسان فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به فقالوا: يد، عين، رأس، قدم فتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها"[52]، وفي نفس السياق يرى ابن خلدون أن العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظها خاصة بها، فرق ذلك عندنا، بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه اللغة عزيز المآخذ، كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملاح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها وخروجها على لسان العرب"[53].

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن الأسلوب الذي سلكه العرب في المجال اللغوي مكنهم من الوصول بنجاح إلى تلك الغاية التي وضعوها نصب أعينهم، فحافظوا بذلك على سلامة اللغة من خطر تفشي اللحن فيها، إلى جانب الدراسات الفذة التي قام بها النحاة خدمة للغة العربية، الأمر الذي جعلها تمتاز بأنها وحدة اتيح لها أن تدرس دراسات تحليلة لغوية شاملة، ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى جهود اللغويين من جهة، وجهود علماء الاجتماع من جهة ثانية كلهم نذروا أنفسهم لخدمة اللغة العربية دون أن يبتغوا كسبا ماديا.

المراجع

1- السيد الشرقاوي: الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي-مؤسسة المختار للنشر القاهرة – ط1، 2006، ص13.

2- ابن خلدون: تاريخ العلامة ابن خلدون:المقدمة ج1 – مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللساني –بيروت 1968، ص 1051

3- المصدر نفسه: 1052

4- السيد الشرقاوي:الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي-مؤسسة المختار للنشر القاهرة – ط1، 2006، ص42. 3

5- المرجع نفسه: ص44.

6- نور الدين النفير: فلسفة اللغة واللسانيات: مؤسسة أبو وجدان للطبع والتوزيع، ط1،: 1993: ص28 5

7- اللسان: يبدو أنَّ المُؤلفين العرب يطلقون أحياناً عبارة اللغة العربية ويقصدون بها اللسان العربي، أمَّا المؤلفين الغرب فيميّزون بين ثلاثة مفاهيم: Langue ويقابلها اللسان؛ Langage ويقابلها اللغة؛ وParole ويقابلها الكلام.

8- الملكة اللغوية Compétence linguistique وتعني المعرفة النظرية للقوانين الصحيحة التي استنبطها أهل صناعة البيان على غرار الملكة التبليغية وهي القدرة على تأليف الكلام مع مراعاة مقتضى الحال، وبها يتمّ اكتساب مادة النحو:

9- ابن خلدون: المقدمة: ص1062.

10- المرجع نفسه: ص: 1056

11- عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية. الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص: 219

12- ابن جني أبي الفتح عثمان. الخصائص. ج2. تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى بيروت، ط2، ص: 42

13- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الاعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، ص: 05

14- عبد السلام المسدي. التفكير اللساني في الحضارة العربية. ص: 310

15- ابن خلدون المقدمة . ص: 1057

16- المصدر نفسه.ص: 1059

17- جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. صححه محمد أحمد جاد المولى، دار الاحياء للكتب العربية، ص: 101

18- عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون. ص: 1072

19- مضر: هي القبيلة التي نزل القرآن بلسانها.

20- حامد ربيع: مقال العلاقة الاتصالية في المفهوم اللغوي والتطور الاجتماعي للغة العربية والوعي القومي . مركز دراسات الوحدة العربية. ط.1. 1984. ص: 151.

21- محمود فهمي نجازي. مدخل الى علم اللغة . دار القباء للطباعة والنشر والتوزيع. طبعة جديدة.1989.ص: 108.

22- المرجع نفسه. ص: 112.

23- ابن خلدون. المقدمة: تاريخ ابن خلدون. ص: 1056.

24- ابن جني. الخصائص: ج1 ص: 108.

25- المصدر نفسه. ص: 1057.

26- ابن خلدون . المقدمة: ص: 1057.

27- عبد الله الجبوري . رسائل في الفقه واللغة. دار الغرب الاسلامي بيروت، ط1، 1982، ص: 162.

28- المرجع نفسه.ص: 164.

29- طلال أحمد العلي وأخرون. اللغة العربية والهوية القومية. ص: 123.

30- عبد القاهر الجرجاني. ص: 24

31- عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة: ص: 1074.

32- محمد الرازي فخر الدين. تفسير الكبير ومفاتيح الغيب. مجلد1، ص: 23.

33- الفيتوري، الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية. ص: 125.

34- جرار الجهامي. الاشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، دار المشرق بيروت، ط1، 1982، ص: 76

35- ابن خلدون . المقدمة: ص: 1057.

36- المرجع نفسه. ص: 404

37- محمد المنجي الصيادي. التعريب في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة

العربية بيروت، ط4، 1985، ص: 434.

38- المرجع نفسه.

39- ابن خلدون. المقدمة:ص: 1070.

40- محمد الصياد. مرجع سابق، ص: 436.

41- محمد العيد. العوامل الطارئة على اللغة، 1981، ج1، ص: 70.

42- عبد السلام المسدي. التفكير اللساني في الحضارة العربية. الطبعة الثانية . ص: 98.

43- ابن خلدون. المقدمة. ص: 1075

44- المصدر نفسه. ص: 1059.

45- عبد السلام المسدي. التفكير اللساني في الحضارة العربية. ص: 99.

46- المرجع نفسه. ص: 210. -المرجع نفسه.ص: 212

47- المرجع نفسه. ص: 214.

48- عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة. ص: 1022.

49- المصدر نفسه. ص: 1031.

50- المصدر نفسه. ص: 1070. -عبد السلام المسدي. نفس المرجع. ص: 216.

51- ابن خلدون المقدمة. ص: 1053.

52- ابن جني. الخصائص: ص: 40.

53- المصدر نفسه. ص: 40.